البابا الرمادي والمثلية

الأب انطوان ملكي

بعد أربعة أشهر من جلوسه على كرسي الرسول بطرس وخلافته للمسيح على الأرض، وفي طريق عودته من البرازيل في ٢٠١٣، سأل الصحافيون بابا الفاتيكان فرنسيس عن المثلية والمثليين فكان جوابه "مَن أنا لأدين؟" الرجل الذي، بحسب تقليد جماعته، يحمل نسخة من مفاتيح أبواب الملكوت، والذي يتطلع العالم إليه كأعلى سلطة أخلاقية على الأرض، قد سبق لأسلافه أن استعملوا هذه السلطة وحوّلوها إلى سياسية حيناً ومالية حيناً آخر، حتى أن بعضهم أشعل الحروب مستنداً إليها، هذا الرجل عينه أعلن أنه لا يستطيع الحكم في أمرٍ حُكمُ الكنيسة والإنجيل فيه واضح جداً. لقد فضّل البابا الانتقال إلى المساحة الرمادية التي تتيح لمحبذي الأبيض أن يجدوا مطلبهم كما لمحبذي الأسود أيضاً.

إلى أي حد يستطيع إنسان في موقعٍ متقدمٍ في المسيحية أن يفصل نفسه عن موقعه؟ وإلى أي حد يستطيع أي موقعٍ أن يقدِّم إجابات غير تلك التي تتبناها الكنيسة؟ فجواب البابا "مَن أنا لأدين؟" ليس في محله. هو لم يُسأل لأنه جورج ماريو باربوغوليو بل لأنه البابا فرنسيس، "أسقف روما، نائب يسوع المسيح، خليفة أمير الرسل، الحبر الأعظم للكنيسة الجامعة، بطريرك الغرب، رئيس إيطاليا، رئيس أساقفة مقاطعة روما، حاكم دولة الفاتيكان، وخادم خدّام الله"[١] الجواب المنتَظر منه هو ما تقوله الكنيسة. البابا إنسانٌ يَطلبُ منه موقعه الكثير أكثر مما هو مطلوبٌ من أي مسيحي آخر من ناحية إعلان وتظهير تعليم الإنجيل والكنيسة.

في ٢٠٢١، صدر ردٌ عن دائرة عقيدة الإيمان جواباً على سؤالٍ موجَّه من بعض الأساقفة حول إمكانية مباركة الأزواج المثليين. يرد في الرد حرفياً أن لا شيء "يمنع البركات الممنوحة للأفراد ذوي الميول الجنسية المثلية، الذين يظهرون إرادة للعيش بأمانة بحسب مخططات الله المعلنة كما هي في تعليم الكنيسة. لكن المحرَّم هو كل أشكال البركة التي تميل إلى الاعتراف بزواجهم على هذا النحو.... [الله] لا يبارك الخطيئة، ولا يستطيع أن يباركها: إنه يبارك الإنسان الخاطئ، حتى يدرك أنه جزء من مخطط محبته ويسمح له أن يتغير... للأسباب المذكورة أعلاه، لا تملك الكنيسة، ولا يمكنها أن تملك، القدرة على مباركة اتِّحادات الأشخاص من نفس الجنس"[٢].

في ١٨ كانون الأول ٢٠٢٣، صدرت وثيقة أخرى عن دائرة عقيدة الإيمان عنوانها Fiducia "Suplicans" (المعنى الرعوي للبركات)، والتي بحسبها سيكون من الممكن منح البركة للأزواج المثليين ولكنْ خارج أي طقوسٍ أو تقليدٍ لحفل الزفاف، إذْ إنَّ عقيدة الزواج لن تتغير، دون أن تعني البركة أبدًا الموافقة على الزواج[٣].

ما الذي تغيّر في سنتين حتى صار للكنيسة القدرة على عمل ما لم تكن قادرة عليه؟

مقدمة الوثيقة: تطوُّر العقيدة

تطوُّر العقيدة هو مصطلح استخدمه جون هنري نيومان وغيره من اللاهوتيين المتأثرين به لوصف الطريقة التي أصبحت بها التعاليم الكاثوليكية أكثر تفصيلاً ووضوحاً على مر القرون، فيما تبقى التعاليم

---

[١] هذه الألقاب التي تُطلَق على البابا وقد كانت في وقت ما مجتمعة تشكّل توقيعه.

[2] Congregation for the Doctrine of the Faith. Responsum to a dubium regarding the blessing of the unions of persons of the same sex, 15.03.2021. https://press.vatican.va/content/salastampa/en/bollettino/pubblico/2021/03/15/210315b.html

[٣] وثيقة جديدة تفتح إمكانيّة منح بركات بسيطة للأشخاص الذين يعيشون أوضاعًا غير منتظمة. أخبار الفاتيكان. https://www.vaticannews.va/ar/vatican-city/news/2023-12/dottrina-fede-dichiarazione-benedizioni-coppie-irregolari.html

اللاحقة للعقيدة متسقة مع التعاليم السابقة. قدَّم نيومان هذا المصطلح عام ١٨٤٥ في كتاب بعنوان "مقالٌ عن تطور العقيدة المسيحية". من الواضح أنَّ من أهدافه كان تقريب وجهات النظر بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو الكاردينال الكاثوليكي الذي كان قبلاً كاهناً أنكليكانياً. كان لفكر نيومان تأثير كبير على المجمع الفاتيكاني الثاني الذي ورد في بيانه أن "فهم الأشياء والكلمات المنقولة ينمو من خلال التأمل ودراسة المؤمنين"[٤]

في مقدمة الإعلان عن الوثيقة المذكورة، يوضح عميد دائرة عقيدة الإيمان، الكاردينال فيكتور مانويل فرناندیز أن الإعلان يتعمق في "المعنى الرعوي للبركات"، مما يسمح "بتوسيع وإغناء الفهم الكلاسيكي لها" من خلال تأمُّلٍ لاهوتي "يقوم على الرؤية الرعوية للبابا فرنسيس". تأملٌ "يتضمَّن تطوراً حقيقياً مقارنةً بما قيل عن البركات" حتى الآن، للوصول إلى فهم إمكانية "منح البركة للأزواج الذين يعيشون في أوضاع غير نظامية وللأزواج المثليين، دون الموافقة على وضعهم بشكل رسمي أو تغيير تعليم الكنيسة الدائم حول الزواج بأي شكل من الأشكال"[٥]

في البحث اللاهوتي، لا يحتاج كلام الكاردينال فرناندیز أعلاه الكثير لبرهان استناده إلى مبدأ تطور العقيدة الذي أتاح الكثير من التغيرات في الغرب، ويبدو أن تقبُّل المثلية هو أحدها. لكن تقبُّل هذا التغيُّر لا يمكن أن يكون فجائياً بل تنبغي التهيئة له، ومن هنا أتى تغيير مفهوم البَرَكة وجعلُه مطاطاً، طالما أن مفهوم الزواج هو عقيدة يتطلب تغييرها إطاراً ومحتوىً غير متوفرين إلى اليوم.

محتوى الوثيقة

تتناول الوثيقة البركة في سر الزواج وترفض الاعتراف بأي شكل من الأشكال "باعتبار زواجاً ما هو ليس كذلك". وتعيد الوثيقة التأكيد على أنَّه وفقاً "للعقيدة الكاثوليكية الدائمة"، تُعتبر العلاقات الجنسية شرعية فقط في سياق الزواج بين رجل وامرأة.

وبعد تحليل معنى البركات المختلفة، تُذكِّر الوثيقة أن البركة "من وجهة نظر ليتورجية بحتة"، تتطلب أن يكون ما تتمُّ مباركته "متوافقًا مع إرادة الله التي يتمُّ التعبير عنها في تعاليم الكنيسة"، لذلك لا سلطة للكنيسة أن تمنح البركة الليتورجية للأزواج غير النظاميين أو المثليين. وهنا ينبغي ملاحظة عبارة البركة الليتورجية، أي أن هناك بركة من نوع غير ليتورجي. ثم تنتقل الوثيقة إلى "الفهم اللاهوتي الرعوي: الذي مفاده أن الذي يطلب البركة يُظهر أنه في حاجة إلى حضور الله الخلاصي في تاريخه"، لأنه يعبر عن "طلب المساعدة من الله، والتماسها لكي يتمكن من أن يعيش بشكل أفضل" وبالتالي يجب قبول هذا الطلب وتقديره "خارج الإطار الليتورجي" عندما يأتي "بطريقة عفوية وحرة". وبالنظر إليها من منظور التقوى الشعبية، "يجب تقييم البركات على أنها أفعال عبادة". وبالتالي فإنَّ مَنحها لا يشترط "الكمال الأخلاقي المسبق"[٦]لطالبها بالضرورة.

ثم تستنتج الوثيقة أن هذا النوع من البركات "يُمنح للجميع، بدون تطلُّبِ أي شيء، لكي نجعل الأشخاص يشعرون أنهم يبقون مبارَكين رغم أخطائهم وأنَّ الآب السماوي لا يزال يريد خيرهم ويرجو أن ينفتحوا في نهاية الأمر على الخير"... لذلك، في حين أن الحظر على تفعيل "الإجراءات أو الطقوس" لا يزال قائماً في هذه الحالات، إلا أنّه يمكن للكاهن أن يتَّحد مع صلاة هؤلاء الأشخاص الذين "على الرغم من أنَّ الاتحاد الذي يعيشونه لا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال بالزواج، لكنّهم يرغبون في أن يسلّموا ذواتهم للربِّ ولرحمته، وأن يطلبوا معونته، وأن يتمَّ إرشادهم إلى فهم أكبر لمخطّطه، مخطّط المحبة والحقيقة"[٧]

[4] Dave Armstrong. Development of Catholic Doctrine: A Primer. National Catholoc Register. January 5, 2018. https://www.ncregister.com/blog/development-of-catholic-doctrine-a-primer

[٥] المرجع نفسه
[٦] المرجع نفسه
[٧] المرجع نفسه

وتستنتج الوثيقة في الفصل الثالث إمكانية منح هذه البركات التي تمثل لفتةً تجاه الذين "إذْ يعترفون بأنهم مُعوزون وبحاجةٍ إلى مساعدة الله، هم لا يطالبون بتشريع حالتهم بل يلتمسون بأن يكون كلَّ ما هو حقٌّ وصالحٌ وإنسانيٌّ حاضرًا في حياتهم وعلاقاتهم، وأن يُشفى ويُصحَّح ويُرفع بحضور الروح القدس" لتنتهي بأنه عندما يطلب البركةَ أزواجٌ غير نظاميين أو مثليين، فإنَّ "هذه البركة لن تتمَّ أبدًا في الوقت عينه لطقوس الزواج المدني، ولا في إطار أي شيء يتعلق بها؛ ولا حتى بالملابس أو التصرفات أو الكلمات الخاصة بالزواج".

تعليق

قد تكون مقارنةُ هذه الوثيقة بعددٍ من الرسائل البابوية السابقة أبسطَ عمليات النَّقد العلمي التي تُظهِر أن المطروح اليومَ فيه ابتعادٌ كبير عن السابق من ناحية مفهومِ البَرَكة وإعطائها وما تستوجبه من ممارسةٍ للإيمان وما تطلبه من المؤمنين، وأيضاً من ناحية مفهوم العلاقة بين الله والبشر بشكل عام، وأخيراً تشريع التفلُّت من الالتزام بالنُّصوص في الصلوات وهو ما كان موضوعَ أكثر من وثيقةٍ ورسالة بابوية.

والواقع هو أن هذه الوثيقة تفتقد فعلياً للمحتوى اللاهوتي الجدّي، وكأنها تجميع استشهادات إنجيلية من هنا وهناك، أو مقاطع من التعليم الكاثوليكي أو رسائل الباباوات، وهذا ما لا يجعل هذه الوثيقة مادةً للدرس، ولا يؤهلها للدراسة كَنَصٍ مسيحي. إن فيها، على المستوى الفكري والروحي، من الهزالة والضحالة في منهجية الفكرِ الذي تعكسه في معالجة الأمور ما يُسقِط عنها صفة الجدِّية التي يُفتَرَض بالنَّص الديني أن يكون عليها كي لا تكون مناقشته مماحكاتٍ حذَّر منها الرسول بولس.

في السكولاستيكية الكاثوليكية، يرِد أن البرَكَة في إطار الطقوس الليتورجية شيء، ومباركة الذين يصرِّحون أنهم "بحاجة إلى حضور الله الخلاصي" شيء آخر كتعبيرٍ عن "طلب مساعدة الله، ودعوة للعيش بشكل أفضل". ومن هنا أنَّ الوثيقة تعلن دون أي تردُّدٍ أن البركة المقصودة هي "خارج الحدود الليتورجية"، أي أنها "في عالم أكثر عفوية وحرية". ويمكن اعتبار هذه العملية البسيطة عملاً من أعمال الأخلاق الدينية ومثالاً على "التقوى الشعبية... ولا يمكن استبعاد أحد عنها".

لهذا، فمن الطبيعي أن يبارك الكاهن بعلامة الصليب أي إنسان على الطريقة الكاثوليكية ويصلّي صلاة قصيرة بغض النظر عن الحالة الأخلاقية أو شرط "الكمال الأخلاقي الأولي" للطالب. أي أن طلب البركة ونوالها لن يُعتبر بأي حال من الأحوال موافقةً من الكنيسة على خطايا الإنسان ورذائله المحتملة.

فيما يبدو الكلام معقولاً، لا يبدو واضحاً مسار هذا الانتقال من البركات الطقوسية إلى البركات الرعائية ولا ما يستتبعه. فالنقطة هنا هي أن التفحُّص الأخلاقي الذي يُعفى منه طالبو البركة ينتقل إلى الكاهن: هل يمكن للكاهن أن يرفض البركة الرعائية إذا كان الشَّخصان طالبا البركة يُشكلان زوجاً من المثليين دون أن يكون قد أخلَّ بواجباته الأخلاقية؟

فالوثيقة، استناداً إلى علم النفس الذي يبرع فيه بعض خبراء الفاتيكان، تضع هذه البركة في إطار صورة شاعريةٍ ذات تأثيرٍ عاطفي تتكثَّف حيث يرِد أن هذه البركات تقدِّمُ لهؤلاء الأزواج إمكانية الرَّحمةِ والبركات السماوية، لتنتهي الوثيقة بأنَّ مباركة الأزواج المثليين مسموحٌ بها، ويمكن الصلاة من أجلهم، طالما لا يتم تفسير هذا الأمر على أنه نعمة طقوسية. ويمعن النص في الضحالة إلى أن ينتهي بأنه لا ينبغي إعطاء البركة باستخدام أي ملابس أو إيماءات أو كلمات مناسبة لحفل الزفاف، أي إذا جاء زوجان مثليان بملابس عادية يحصلان على البركة، ولكن إذا جاءا بملابس الزفاف فإنَّهما يُحرَمان منها.

إن المنهجية المُتَّبعة مخادِعة، حيث هناك استبدالٌ دقيق للمفاهيم. لا يمكن مباركة الاتِّحاد المثليِّ لأنَّه يتعارض مع عقيدة الزواج الكاثوليكية، لكنْ يمكن مباركةُ المثليين لأن المباركة هي تعبيرٌ عن الرحمة تجاه المذنب والإنسانية بشكل عام. فيما لا يرفض أحدٌ أنَّه لو تقدَّم كلُّ واحدٍ من الزَّوجين المثليين على حدة طالباً البركة لشخصه لحصل عليها، فإنَّ تكرار الكلام عن زوجين يأتي كتأمينٍ لفُرصة مباركة الأزواج

المثليين، وليس مجرد الأفراد ذوي التوجهات غير التقليدية. إنه موقف يتبنّى العلاقات المثلية وقد تمَّت صياغته بطريقة رمادية تملُّصية.

صراع التقليديين والليبراليين

واضحٌ أنَّ من بين أهداف الوثيقة تهدئة مشاعرِ الذين أصيبوا بالخيبة من رسالة ٢٠٢١، وطمأنة أنصار مجتمع المثليين أن الكثلكة لا ترفضهم، وأنها تتحرك في الاتجاه السياسي "الصحيح". فالصراع الحاد في الكثلكة بين الليبراليين والمحافظين يجد في الموقف من المثلية مكاناً للظهور، كما في كل الجماعات. فليبراليو الفاتيكان يجادلون بأن الوقت قد حان لتحريرٍ شاملٍ يتضمَّن الاعترافَ بمجتمع المثليين وكهنوتِ المرأة والسماحَ بالإجهاضِ والقتلِ الرحيم، وغيرها من "الإصلاحات"، وإلا فالكثلكة مُعرَّضة لخطر الاختفاء التام كونها لا تتماشى مع متطلبات المجتمع "الحديث". في المقابل، يُصرُّ التقليديون على أن "الكنيسة الكاثوليكية" يجب أن تظل وفية لتعاليمها الأخلاقية، ولن يساعد التحرير في منع عملية العلمنة المجتمعية بل سيحوِّل الكنيسة إلى أداةٍ خاضعة للمشاعر العامة[٨]. هذا الصراع المستمر سيضطر الفاتيكان إلى الاختيار بين الاعتراف بزواج المثليين أو رفضه. من هنا أن ظهور هذه الوثيقة هو محاولةٌ يائسة للبقاء في الرمادي وإرضاء كلٍّ من المحافظين والليبراليين.

لكنْ من حق المحافظين الآن أن يتساءلوا ويتَّهموا رئاستهم بالاعتراف بالأزواج من نفس الجنس. في المقابل لن يكتفي الليبراليون، بل سيعتبرون القرارات فاترةً وسيطالبون الفاتيكان بالاعتراف الكامل بحقوق المثليين، بما في ذلك الحق في الزواج من دون تمييز كأن يُعطى للزواج التقليدي بركات ليتورجية فيما للمثليين بركات لاهوتية رعوية وحسب.

مواقف من الوثيقة

الميتروبوليت هيلاريون مطران بودابست، الرئيس السابق لمكتب العلاقات الخارجية في الكنيسة الروسية، وهو الخبير بشؤون الكثلكة، رأى أن الوحدة مع الأرثوذكسية صارت مستحيلة لأن "خطواتٍ من هذا النوع، بالطبع، لا تقرِّبنا من بعضٍ بل تخلق خطوط فصلٍ بيننا"[٩]

كما ينبغي التوقف عند البيان الذي أصدره المفتي الجعفري الشيخ أحمد قبلان، وفيه ينقد الوثيقة بفكر إنساني شامل يستند إلى بديهيات مشتركة -ولو بالشكل- بين الأديان، ما يؤكّد ركاكة الفكر الذي تعكسه الوثيقة. في ما يلي بعض مما ورد في البيان، لا من باب الاستشهاد بل من باب التوثيق، حيث لفت البيان إلى أنَّه "لا يمكن لأي عقل طبيعي أو ديني أو فطري قبول أي ساتر من سواتر مباركة الشذوذ الجنسي من لواط وسحاق وأمثاله مما يعد من أسوأ أنواع الجرائم الأخلاقية وأطغاها، والشذوذ بما هو شذوذ لا يمكن أن يكون زواجاً أو رابطاً أبدياً ولا إمكانية لمباركة مرتكبيه ولا مكان له في عالم الإنسان وأخلاقياته الوجودية... خلط البَرَكة بالشذوذ ينسف البركة ويطعن صميم حقوق أسباب وجود الإنسان، ورحمة الرب بصريح المنقول عن الربِّ لا تنال أصحاب هذا النوع الذي يرتكب أسوأ شذوذ أخلاقي وأخطر كارثة مدوية في عالم الأخلاق وضرورات النوع الإنساني، لذلك فإن مباركة هذا النوع الشاذ تحت أي شكل من الأشكال كارثة مدوية ونكبة طبيعية وأخلاقية لا يمكن لأي دين أو ضمير أن يقبل بها على الإطلاق":[١٠]

[8] Kirill Aleksandrov. Will Catholicism be split in 2023? UOJ. 04 June 2021. https://spzh.news/en/zashhita-very/80288-raskol-katolichestva-proizojdet-uzhe-v-2023-godu

[9] Yaroslav Nivkin. ROC rep: After RCC blesses gays, reunification with Orthodoxy is impossible. Union of Orthodox Journalists. 22 December 2023. https://spzh.news/en/news/77558-roc-rep-after-rcc-blesses-gays-reunification-with-orthodoxy-is-impossible

[١٠] المفتي قبلان : مباركة الشذوذ الجنسي كارثة مدوية ونكبة طبيعية وأخلاقية لا يمكن لأي دين أو ضمير أن يقبل بها. الخميس ٢١ كانون الأول ٢٠٢٣. https://www.nna-leb.gov.lb/ar/سياسة/664292/

خاتمة

في تاريخه الذي نعرفه، تنقّل البابا فرنسيس بين الأبيض والأسود وتوقف في الرمادي كثيراً. فقد رأيناه يقبّل أرجل الحاخامات ويصلّي مع عبدة الشجر وغيره العديد من الأحداث التي أبعدت كثيرين من الكاثوليكيين عن روما وباباها، ومنها تحديداً الموقف من المثلية والمثليين.

في الأمور ذات الطابع السياسي، كالمثلية والحروب، من الصعب التمييز بين موقف دولة الفاتيكان وموقف الكثلكة. إن محاولة إضفاء الطابع الإيماني على المواقف السياسية لم ينتج عنه إلا الفضائح والانشقاقات والخفة بالتعاطي والانتقائية في التطبيق. إن العودة إلى دراسة الأدوار التي ثبت أن دبلوماسية الفاتيكان أو بنك الفاتيكان لعباها في مختلف الحروب الكبيرة والصغيرة من الحرب العالمية الثانية إلى فييتنام إلى لبنان وصولاً إلى حرب أوكرانيا مع كل محطات ما جرى في فلسطين المحتلة منذ بداية القرن الماضي، تُظهِر أن تراجع الفكر الإيماني لصالح الارتهان لفكر سياسي بلغ فجورُه درجةً لم يعد يجد نفسه مضطراً لتغليف أي موقف. هذا ما يجعل رمادية مواقف الفاتيكان مجرد غطاء لموقف سوف يظهر سواده عاجلاً أم آجلاً. هذا يعني أن ما يُشرِّعه اليوم كبَرَكة سوف يصير زواجاً والكهنة الذين يرفضونه سوف يضطهَدون، تماماً كما يجري في الدول الغربية الأخرى.